

المقاومة الوطنية المسلحة في متيجة (1830-1840)

مقدمة:

لم تف فرنسا بتعهداتها إزاء الجزائريين بموجب معاهدة 5 جويلية 1830، إذ سرعان ما قام جنود حملتها بالسطو على أرزاق و ممتلكات الجزائريين ، و استهدفوا في الوقت نفسه مؤسساتهم الدينية و الثقافية و طمسوا المعالم الحضارية العربية و الإسلامية لمدينهم، لينكشف بذلك الوجه الاستدماري الإجرامي للحملة الفرنسية علنية أمام الشعب الجزائري، الذي لم يدخر جهدا في مقاومتها بكل ما توفر عليه من قوة، معبرا في نفس الوقت عن رفضه لهذا الاحتلال، و تمسكه بأرضه و هويته الوطنية

و تعتبر مقاومة متيجة من أبرز المقاومات المسلحة الوطنية التي أبلى فيها الجزائريون البلاء الحسن في التصدي للجيش الفرنسي الغازي الذي تطلع للتوسع خارج العاصمة عقب سقوطها تحت سيطرته لفك الحصار المضروب عليه من طرف المقاومة الوطنية المسلحة. فما هي الظروف المحيطة بظهور مقاومة متيجة و دوافعها الحقيقية؟ و ابرز الانتصارات التي حققتها؟ و فيم تمثلت سياسة فرنسا في مواجهتها؟ و ناهي الانعكاسات المترتبة عنها؟

1. لمحة جغرافية عن المنطقة:

تمتد منطقة متيجة بين الساحل شمالا ومرتفعات الأطلس جنوبا، و بين بودواو شرقا و حجوط غربا، كانت تتكون من مجموعة من الأوطان و كل وطن يديره قائد، و يضم الوطن الواحد مجموعة من القبائل يرأس كل قبيلة شيخ، وهناك ثلاث قبائل رئيسية كانت تسيطر على المنطقة سياسيا و تجاريا وهي قبيلة بني خليل المتواجدة في الشريط الممتد من غرب الجزائر إلى الجنوب الغربي، و قبيلة بني موسى من الجنوب الغربي حتى الجنوب الشرقي، و قبيلة الخشنة من الجنوب الشرقي والشرق.

وقد عُرفت المنطقة بسهولها الخصبة وبخضرواتها وبفواكهها ، إضافة إلى شهرتها بالأسواق التجارية، لاسيما المتواجدة في رقعة القبائل الثلاث السالفة الذكر، وكانت هذه الأسواق أكبر ممون لمدينة الجزائر باحتياجاتها من الخضر والفواكه والزيتون والحبوب والألبان واللحوم، ومن هنا تتجلى الأهمية الاقتصادية لمنطقة متيجة ،زيادة عن كونها أقرب نقطة للعاصمة، مما زاد في جشع وطمع الغزاة الفرنسيين في الاستيلاء عليها، إلا أنهم اصطدموا بمقاومة عنيفة، فما هي الأسباب الأخرى لهذه المقاومة؟ وما هي المراحل التي قطعتها، وما هي الانعكاسات المترتبة عليها؟

2. ظروف ودوافع المقاومة: يمكن تلخيصها في النقاط الآتية:

- الاحتلال الفرنسي لمدينة الجزائر وانهيار السلطة المركزية، وظهور الفراغ السياسي وما ترتب عنه من فوضى واضطرابات عارمة في المدينة.

- استهتار العدو بالمؤسسات الدينية الإسلامية واغتصابه لأماكن سكان العاصمة العامة والخاصة.

- تطّلع الجيش الفرنسي للتوسع خارج العاصمة نحو منطقة متيجة.

- توفر المنطقة على شخصيات وزعامات دينية وقبلية كان لها دور كبير في الدعوة للمقاومة، أمثال الحاج ابن زعموم (زعيم قبيلة فليسة) و، الحاج علي السعدي (رجل ديني من عائلة محافظة بالعاصمة) و الحاج محي الدين بن المبارك (أغا العرب بالقليعة)، حيث لعب هؤلاء دورا كبيرا في إثارة القبائل الجزائرية ضد فرنسا بدعوتهم للجهاد و حمل السلاح.

3. مراحل المقاومة ومآلها:

مرّت المقاومة بثلاث مراحل متباينة من حيث التطوّر:

1.3. المرحلة الأولى (1830 - 1832):

بعد سقوط العاصمة و انتهاء المقاومة الرسمية باستسلام الداي حسين، بدأت المقاومة الشعبية، و في هذا الصدد كتب المؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله قائلا: ((وإذا كان أهل المدينة قد فضلوا السلام على الحرب وقرروا عدم الوقوف في وجه الجيش الفرنسي، فإن عرب البادية من الفلاحين وعمال الأرض ورؤساء القبائل ورجال الدين قد قرروا المقاومة و منع تقدم الجيش الفرنسي خارج المدينة، و من الطبيعي أن يكون أول من اصطدم بالعدو خارج المدينة، هم سكان متيجة الممتد من الساحل إلى جبال الأطلس))

اجتمع زعماء قبائل متيجة و عدد من علماء الجزائر بتامنفوست (برج البحري) بالعاصمة في 23 جويلية 1830 ، وقرروا فيه إعلان الجهاد ضد الغزاة الفرنسيين، و ضرب حصار على جيش الاحتلال و منع توسعه و تموينه من خارج العاصمة.، و قد أكد سعد الله على أهمية هذا الاجتماع، بقوله ((و نتج عن ذلك الاجتماع أيضا ارتفاع الروح المعنوية و عودة الأمل بالتحريض))، فكان هذا الاجتماع بمثابة إشارة انطلاق المقاومة الشعبية، التي شددت الخناق على العدو بالعاصمة عقب سقوطها.

و يهدف فك الحصار المضروب على الجيش الفرنسي بمدينة الجزائر، قام قائده العام دوبرمون (De Bourmont) بشن حملة عسكرية على مدينة البليدة في 23 جويلية 1830، والتي كان مآلها الفشل بعدما تصدت لها قبائل متيجة: فليسة، بني موسى، والخشنة، و بني خليل، ملحقين بها خسائر هامة ، قدّرت بحوالي 15 قتيلًا، و 43 جريحًا، إضافة إلى التدايعات النفسية و المعنوية التي تركتها هذه الهزيمة في أوساط الجيش و قاداته.

و فشل أيضا هذا الأخير في حملته التي قادها الضابط (دامريمون) في الاستيلاء على عنابة خلال شهر أوت 1830م ، و قد تزامن ذلك مع فقدان دي بورمون لابنه (أميدي بورمون) في حملته العسكرية على وهران في 13 أوت 1830، التي اصطدمت بمقاومة سكان المدينة الباسلة و أجبرتها على الانسحاب من المرسى الكبير و حصون مدينة وهران .

كانت هذه النكسات التي تعرضت لها القوات الغازية سببا في إقدام الحكومة الفرنسية على عزل دوبورمون في 7 أوت 1830. و خلفه في القيادة (كلوزيل Clauzel) ، الذي تمكنت قواته بقيادة الضابط (بوابيه) من الدخول إلى البليدة في 17 نوفمبر 1830، لكن سرعانما أرغمتها مقاومة السكان على الجلاء منها

وإذا كانت قوات كلوزيل قد نجحت مرة أخرى في الدخول إلى المدية في 22 نوفمبر من نفس السنة، وتنصيب عليها (مصطفى بن الحاج عمر) بايا جديدا خلفا لمصطفى بومزراق ، الذي رفض الاستمرار في ولائه للفرنسيين وأعلن استقلاله عن دي بورمون وتلقب بلقب الباشا، إلا أنّ المقاومين الوطنيين وكان على رأسهم ابن زعموم أرغموه على الانسحاب من المدية، وكبدوا قواته خسائر هامة في الأرواح والمعدات الحربية في البليدة وموزاية و بوفاريك أثناء عودتها من المدية في اتجاه العاصمة، وهو ما دفع بكلوزيل إلى الانتقام من السكان الأبرياء بكل وحشية حيث قام بارتكاب مجزرة في حق سكان البليدة خلال شهر نوفمبر 1830، لكن ذلك لم يثن من عزيمة المقاومين، حيث كثفوا من هجوماتهم على جيش الاحتلال بقيادة بيرتزين Berthezéne (خليفة كلوزيل) بالعاصمة، و شددوا الخناق عليه.

و بدورهم تمكن الثور بقيادة بقيادة ابن زعموم من مهاجمة المزرعة النموذجية الاستعمارية بالقرب من وادي الحراش و إتلاف محاصيلها سنة 1831، و استمرت في تصديها لجميع محاولات العدو لفك الحصار المضروب على قواته. إضافة إلى الدور الكبير الذي أداه الحاج السعدي خلال هذه المرحلة في تعبئة السكان للمقاومة و قد ساعده على ذلك مكانته الدينية، كما قاد ميدانيا مجموعة من الثوار استهدف بهم المصالح الاقتصادية الإستراتيجية للعدو بسهل متيجة.

و تحت تأثير الانتصارات المحققة من طرف المقاومة خلال هذه الفترة، قامت فرنسا بعزل الجنرال (بيرتزين)، و عينت الجنرال (دوق روفيقو Duc De Rovigo) كقائد جديد لقواتها، و راهنت عليه في سحق المقاومة بعدما وفرت كل الإمكانيات العسكرية الضرورية، لذلك لم يتردد هذا الأخير في توظيف شتى الأساليب الوحشية للقضاء على المقاومة و الانتقام من السكان على طريقته الخاصة، من خلال إقدامه في ليلة الخامس أفريل 1832 في ذبح قبيلة

العوفية (ما وراء وادي الحراش) عن آخرها أثناء نومها، كما قام هذا الأخير باغتيال بعض شيوخ القبائل بعدما أعطاهم الأمان مثل الشيخ العربي بن موسى قائد بني خليل والشيخ عبد الوادي قائد وطن السبت.

رغم الأساليب الوحشية التي انتهجها الغزاة الفرنسيون ضد سكان متيجة، إلا أنهم لم يتمكنوا من فرض سيطرتهم على المنطقة خلال هذه الفترة أمام تزايد انضمام السكان إلى المقاومة والالتفاف حول زعمائها أمثال الشيخ السعدي وابن زعموم، وبذلك أصبحت المقاومة في مرحلتها الثانية أكثر تنظيماً واستبسالاً في مواجهة الغزاة.

2.3. المرحلة الثانية: (1832-1835):

تحققت القيادة الجديدة الموحدة للمقاومة على إثر الاجتماع التاريخي المنعقد بسوق الإثنين بالقرب من بوفاريك خلال شهر سبتمبر 1832، و منذ ذلك التاريخ أصبح يتولى الزعامة الروحية للمقاومة الحاج السعدي، بينما أسندت قيادتها العسكرية إلى الحاج بن زعموم وأبنائه

أستطاع الحاج السعدي (الضمير الحي للمقاومة)، أن يستغل علاقاته العديدة بشيوخ الزوايا ورؤساء القبائل بسهل متيجة، وحتى في منطقة زواوة، و مكانته كرجل علم ودين وكفاءته في التأثير على الأعيان وعموم الناس، واستغل حتى رؤيته الصوفية التي يدعيها أهل التصوف، إذ كان يقول لأتباعه بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أعطاه في منامه راية الجهاد وأخبره بقرب انهزام الفرنسيين. كما تمكن هذا الأخير من إقناع صديقه الحاج محي الدين شيخ زاوية القليعة بالانضمام إلى صفوف المقاومة والتخلي عن منصبه آغا العرب الذي منحته له الإدارة الاستعمارية.

استطاعت المقاومة خلال هذه الفترة أن تتصدى لجميع المحاولات العسكرية الفرنسية للسيطرة على القليعة وحجوط والبليدة، واستمر الوضع على حاله حتى تمكنت الإدارة الاستعمارية من اختراق صفوف القبائل عن طريق انتهاجها لسياسة فرق تسد، بحيث استطاعت أن تعين بعض الموالين لها على أعراش (أفراد من قبيلتي بني خليل و بني موسى)، وضمنت بذلك التعامل التجاري مع هذه الأعراش، مكسرة بذلك الحصار المفروض عليها،

إضافة إلى تغيير إستراتيجياتها العسكرية في مواجهة المقاومة وذلك باعتمادها أسلوب الهجومات الخاطفة بفرق عسكرية صغيرة العدد، طيلة سنتي 1833 و1834. و في ظل هذه الظروف أخذت انتصارات مقاومة الأمير عبد القادر و امتداد نفوذه إلى المدينة سنة 1834 في الانتشار في أوساط الثوار و قادتهم، الذين لم يترددوا في الاتصال به بالمدينة وإعلان الولاء له باعتباره رمز الجهاد و الوحدة الوطنية، وبذلك أصبحت مقاومة متيجة بداية من سنة 1835 متصلة ومرتبطة بمقاومة الأمير عبد القادر، فقام هذا الأخير بتعيين الحاج سيدي السعدي خليفة له على منطقة متيجة و زواوة.

3.3. المرحلة الثالثة (1835-1840):

لاشك أن اتصال زعماء المقاومة الثلاثة (الحاج سيدي السعدي، و الحاج محي الدين مبارك، وابن زعموم) بالأمير عبد القادر و قبولهم الانضمام إلى مقاومته، راجع بالدرجة الأولى إلى الرغبة في توحيد الجبهة الوطنية ضد العدو الذي عزز من قوته العسكرية المادية و البشرية.

ظل الحاج السعدي كزعيم ديني وكخليفة للأمير عبد القادر خلال هذه الفترة يدعو للجهاد ويربط الاتصالات مع الزعماء الدينيين والقادة العسكريين للمقاومة في منطقة متيجة من أجل الاستمرار في القتال ووضع حد لاستيلاء الفرنسيين على سهل متيجة والتحكم فيه.

ما توطدت صلة الأمير بمتيجة بعدما أعلن زعماء شرشال والقليلة أمثال الشيخ محمد بن عيسى البركاني والحاج محي الدين المبارك القليعي ولاءهم للأمير، وفي ظل هذه الظروف شنت فرنسا عدة حملات عسكرية على متيجة، لاسيما التي قادها الماريشال كلوزال (الذي عاد إلى الحكم بالجزائر خلفا للقائد ديلرون) على مدينة البليدة في 21 أكتوبر 1835، وحملة أخرى قادها الجنرال دامريمون على نفس المدينة في 29 أبريل 1837 إلا أنّ المقاومة أحبطت هاتين الحملتين بكل بسالة.

وبعد توقيع فرنسا معاهدة التافنة مع الأمير عبد القادر في 30 ماي 1837، التي كان لها انعكاسات سلبية على مسار المقاومة الوطنية، حيث مكنت فرنسا من التفرغ لسحق المقاومة بتكثيف من حملاتها العسكرية عليها خلال الفترة التي حكم فيها الماريشال فاليه

الجزائر (1837 - 1841)، لتتمكن في الأخير من فرض سيطرتها التامة عليها بعد انتصارها في معركة وادي العلايق في نهاية ديسمبر 1839، كما استطاع هذا الأخير-فاليه- في سنة 1840 من فرض سيطرته على مدن هامة كانت محسوبة على الأمير كمليانة و شرشال و القليعة.

المصادر والمراجع:

- 1-المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، تاريخ الجزائر (1830-1962)، (قرص مضغوط)، وزارة المجاهدين، الجزائر 2002
- 2-بوعلام بن حمودة، الثورة الجزائرية، ثورة أول نوفمبر 1954، معالمها الأساسية، دار النعمان للطباعة و النشر، الجزائر، 2012
- 3-بوعزيز يحي، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، عالم المعرفة للنشر و التوزيع الجزائر 2009
- 4-بلاح بشير، تاريخ الجزائر المعاصر (1830-1989)، ج1، دار المعرفة، الجزائر، 2006
- 5-خيثر عبد النور و آخرون، أسس ومنطلقات الحركة الوطنية الجزائرية (1830-1954)، منشورات المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، (د.ت)
- 6-رامي سيد أحمد، قراءة في أسباب فشل المقاومات الشعبية في طرد الإحتلال الفرنسي من الجزائر، مجلة قضايا تاريخية، العدد7، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر، 2017
- 7-سعد الله أبو القاسم، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الإحتلال)، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1982
- 8-سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية (1830-1900)، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1992
- 9-مقلاتي عبد الله، المرجع في تاريخ الجزائر المعاصر (1830-1954)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2014

10-نجادي بوعلام ، الإستعمار الفرنسي في الجزائر زمن المجازر (حقبة التحريق)، موفم
للنشر، الجزائر، 2013